من مظاهر التعريب في الأندلس

أ. د. علي أحمد
كلية الآداب – جامعة دمشق – سورية

لم تكن الأندلس في العصور القديمة بعيدة عن مؤثرات التعريب، التي تسبب بها الفينيقيون، الذين وجدوا في عدد من مناطق الأندلس، ولاسيما في المناطق الساحلية، ذلك لأن اهتمام الفينيقيين كان في المقام الأول بالتجارة عبر البحار، ساعدهم على ذلك امتلاكهم لأسطول بحري كبير ولخبرة واسعة في أمور الملاحة وأخبار البحار.

ومن أهم المواقع العربية التي أقاموها بالأندلس كانت مدينة سكي وهي المنكب العربية، التي لا تزال من أهم المنتجعات البحرية القريبة من غرناطة في جنوب شرقيّ إسبانيا، ومدينة مالحة وهي مالقة الحالية، التي كانت مقراً لتمليح الأسماك وحفظها.

وفي الجنوب الغربي بنوا مدينة جادير، التي تعني القلعة والتي عرفت في العصور الوسطى قادس.[1]

ومن حسن حظ عملية التعريب في الأندلس بعد دخول العرب إليها، أن الحكام العرب في هذه البلاد كانوا متحمسين جداً لإنجاز هذه العملية بأكمل وأشمل صورها، وخاصة في عصر الأمويين أيام الإمارة والخلافة، فقد تميز الأمويون كما أجدادهم في المشرق بالتمسك بضرورة سيادة الحكم على أساس عربي واضح المعالم، وكذلك في ابتعادهم عن كل المسائل، التي كانوا يرون فيها معطلاً لمشروعهم العربي في القارة الأوربية، ذلك لأنهم كانوا يؤمنون بأن الوجود العربي بالأندلس لن يستمر إلا من خلال الاعتماد على جهة عربية موحدة الجهود

[1] أحمد توفيق المدني، **قرطاجة في أربع عصور**، طبعة تونس 1926، ص 33 وما بعدها.

والاستراتيجيات.

وبالفعل فقد نجح الأمويون الأندلسيون نجاحاً باهراً في مسألة تجذير الثقافة العربية على الصعد كافة، حتى أصبحت هذه الثقافة ثقافة عالمية شملت القارة الأوربية كلها، وذلك ابتداء من عصر الخلافة الأموية بالأندلس، وكان عنوان أي تحضر أو تقدم علمي، يرتبط ارتباطاً وثيقاً بهذه الثقافة المتقدمة، بما يعرف بعصرنا بثقافة العولمة، كل ذلك جعل الإسبان والأوربيين وكل العناصر الأخرى في المجتمع العربي بالأندلس يُقبلون على دراسة هذه الثقافة، على كراهيتهم وتعصبهم على أصحابها من العرب، ذلك لأنهم كانوا يعتقدون أن كمال حياتهم، لن يتحقق إذا ظلوا بعيدين عن هذه الثقافة، لهذا نراهم يقدمون على دراسة أهم فروع هذه الثقافة، وخاصة الطب والصيدلة والفلسفة العقلانية، والهندسة بمختلف فروعها، والزراعة وبقية العلوم التطبيقية، حتى إن مجموعة منهم ركزت على دراسة علوم اللغة العربية والكتابة في بعض موضوعاتها.

ساعد على إنجاز هذه الحالة المزدهرة أن العرب حتى نهاية القرن الخامس الهجري – الحادي عشر الميلادي تقريباً لم يتعصبوا على غيرهم من أبناء القوميات والأديان الأخرى، ذلك لأنهم كانوا ينطلقون من مفهوم راسخ في نفوسهم هو أنهم من أمة قيادية ينبغي لهم استيعاب الجميع على أساس العدل والمساواة والمواطنة العربية، وعملية استيعاب الآخرين على هذا الأساس، هي من أهم العمليات لانتشار ظاهرة التعريب. ونتيجة لذلك استطاعت جميع الفئات من غير العرب، أن تعيش عيشة هادئة ومستقرة طَوال خمسة قرون متوالية تقريباً من حكم العرب بالأندلس.

وهنا ينبغي التنويه بأن السبب في التركيز على ظاهرة التعريب في الأندلس هو أن فتح هذا البلد كان قد أنجز في العصر الأموي، هذا العصر الذي تميز بوجهٍ خاص بتركيز حكامه على مسألة الاعتماد على العنصر العربي، والسير في هذا الاتجاه إلى النهاية بدون تردد، ذلك لأنهم كانوا يعتقدون بجدارة وأحقية العنصر العربي في الحكم والقيادة انطلاقاً من أن العرب هم

الذين أنجزوا توحيد الدولة المترامية الأطراف، التي حكمها الأمويون بنجاح.

وقد بدأت محاولات التعريب في الأندلس منذ اللحظة الأولى لبداية عملية الفتح، حينما قام موسى بن نصير بتعيين أحد المغاربة وهو طارق بن زياد قائداً للقوة المكلفة بفتح الأندلس، على الرغم من وجود من هو أجدر منه في صفوف المشارقة: ولكن موسى بن نصير كان يريد من خلال تعيين طارق بن زياد لقيادة الجيش الفاتح، أن يقول للمغاربة إنهم عرب، ينبغي أن يتحملوا مسؤولياتهم على قدم المساواة مع العرب المشارقة في كل الذي كان يجري في تلك الحقبة من الزمن.[1]

وقد نجحت خطة موسى بن نصير نجاحاً لافتاً، ذلك لأن المغاربة شاركوا في حملة طارق مشاركة صادقة، مما أدى إلى إنجاز عملية فتح الأندلس في مدةٍ قياسية.

لما استقر العرب بالأندلس، وجدوا أنفسهم في منطقة بعيدة قد أحيطت من جميع جهاتها تقريباً بالمياه، مما يحتم عليهم على الدوام أن يكونوا في حالة تحفز وجاهزية، وخاصة أنهم لم ينجزوا فتح معظم المنطقة الشمالية من الأندلس، التي أصبحت ملاذاً لمجموعة كبيرة من الإسبان، حملوا لواء تحرير الأندلس من العرب، وعُرفت حركتهم بالأندلس طوال العصور الوسطى بحركة الاسترداد، التي نجحت آخر الأمر في استعادة الأندلس وتحريرها من العرب.

وكان من أهم ما يجمع العرب في هذه البلاد، هو شعورهم بضرورة الاعتماد على أنفسهم وهي سياسة أخذ بها الأمويون وطبقوها حتى سقوط دولتهم بالأندلس سنة 422هـ / 1032م.

ففي عصر الولاة الذي استمر حتى سنة 138هـ/756م، كان الطابع العربي ظاهراً في كل المجالات، وخاصة في المجال السياسي، فقد أظهر الولاة الأندلسيون تمسكاً لافتاً بقضية الاعتماد على العنصر العربي، وتقوية هذا العنصر بكل الوسائل والإمكانات.

---

[1] علي أحمد، **تاريخ العصر الأموي السياسي والحضاري**، ص 110. وقد كان طارق بن زياد خير من حرص على تعريب الأندلس منذ البداية فقد أحاط قواته العسكرية بسور في منطقة جبل طارق، سماه سور العرب، الذي أشار إليه ابن بطوطة في رحلته.

وقد برز ذلك واضحاً في موقف الصميل بن حاتم، الذي كان زعيماً للقيسية بالأندلس في هذا العصر، فقد التقى مصادفةً أحد معلمي الصبيان بمدينة قرطبة، وهو يعلم الصبيان الآية القرآنية الكريمة القائلة: "وتلك الأيام نداولها بين الناس" فزجره بقوة وقال له، ينبغي أن تدرس الآية على النحو الآتي: (وتلك الأيام نداولها بين العرب).[1]

ويفهم من هذه الحادثة أن العرب لم يكونوا في تلك الأيام يسمحون أن يشاركهم أية مجموعة لا تنحدر من أصول عربية صريحة.

وفي هذا العصر قام الوالي الأندلسي عبد الملك بن قطن، وهو أحد ولاة الأندلس المشهورين في المرحلة المتأخرة من هذا العصر بالاستنجاد بالقوة العربية، التي كانت محاصرة بمدينة سبته بالمغرب الأقصى، مع أنه لم يكن يحب هذه القوة، ذلك لأنه شعر بتهديد السلطان العربي بالأندلس في وقت مبكر.

من جهة أخرى وجد والي الأندلس أبو الخطار حسام بن ضرار الكلبي، أنه من الضروري لاستمرار البقاء العربي بالأندلس، أن يوزع العرب الذين كانوا في معظمهم بقرطبة على الكور والمناطق الأندلسية، لِتعزيز وتوسيع رقعة الوجود العربي في مناطق هامة خارج العاصمة قرطبة، فقد توضع جند حمص في كورة إشبيلية لِشَبَهِ هذه المنطقة بحمص وسميت حمص الأندلس، وتوضع جند دمشق بكورة غرناطة لشبهها بدمشق، وسميت دمشق الأندلس وتوضع جند الأردن بمالقة التي سميت الأردن، وتوضع جند مصر في كورة تدمير (التي ستصبح مرسية) وسميت مصر.[2]

وقد كان لهذا التوزيع أثره البالغ في تعريب هذه المناطق بسرعة كبيرة، ذلك لأن عناصر هذه الأجناد كانوا برمتهم تقريباً من العرب، الذين كانوا يشتعلون حماساً لنشر ثقافتهم العربية

---

[1] ابن القوطية – **تاريخ افتتاح الأندلس**، ص 63.

[2] مؤلف مجهول، **أخبار مجموع**، ص 31، الحميري – **الروض المعطار**، ص 181 – المقري – **نفح الطيب** ج1، ص 155.

في الأندلس تمهيداً لدخول بقية البلاد الأوربية المجاورة، كما كان يحلم الأمويون طَوال مدة حكمهم، والدليل على ذلك أن جميع المحاولات، التي قامت في عصر الولاة لاختراق الحدود الفرنسية كانت تنطلق لتحقيق هذا الحلم الأموي.

فالأمويون كما هو معروف أخفقوا في دخول القسطنطينية عن طريق المشرق، فحينما دخلوا الأندلس راودهم هذا الحلم من جديد وتصوروا أن يدخلوا من الغرب بعد السيطرة على أوربا، ولكن هذا الحلم لم يتحقق، لأن كل المحاولات العسكرية فشلت في الجنوب الفرنسي.

وكان من أهم هذه المحاولات تلك التي قام بها عبد الرحمن الغافقي، الذي استشهد في بواتيه (بلاط الشهداء) سنة 114 هـ / 733 م.[1]

وهنا ينبغي أن نشير إلى أن الخليفة الأموي عمر بن عبد العزيز كان يود في المدة الأولى من حكمه القصير، أن يأمر بعودة عرب الأندلس إلى المغرب الكبير، خوفاً عليهم من أن يتعرضوا لظروف صعبة، لكنه تراجع عن ذلك حينما تأكد له أن حالتهم العامة إيجابية ومستقرة، وأمر على أثر ذلك بتوزيع مساحات هامة من أرض الأندلس على العناصر العربية في عدد من مناطق الأندلس، ذلك لأنه كان يؤمن، على الرغم من توجهه الإسلامي، الذي لا يفرق بين عربي وغير عربي، كان يؤمن بأن العرب هم الذين يستطيعون نشر الدين الإسلامي، وثقافة العرب، وصنع مجد الدولة العربية في أي مكان وزمان.[2]

أما في عصر الإمارة الأموية بالأندلس، فقد كان أمر التعريب مدعاة للفخر والاعتزاز، فقد وقف الأمراء الأمويون موقفاً حاسماً في وجه كل العقبات، التي تحد من انتشار ظاهرة التعريب في كل مناطق الأندلس، فقد أعلنوا منذ بداية هذا العصر على لسان مؤسس حكم الإمارة الأموية بالأندلس عبد الرحمن الداخل، أن الولاء للدولة الجديدة بالأندلس، لا يكون إلا للقانون، الذي يشرف الأمير الأموي على تنفيذه والتقيد بمواده لمصلحة وحدة الدولة والبلاد،

---

[1] ابن عذاري – **البيان المغرب** ج1 ص 51

[2] مؤلف مجهول – **أخبار مجموعة**، ص 22 وما بعدها. ابن عذاري – **البيان المغرب**، ج 1، ص 48.

وهذا يعني رفض العصبية القبلية، التي كانت مرضاً متفشياً في عصر الولاة، كذلك رفض تدخل رجال الدين بشؤون الحكم على غرار ما كان معروفاً ومطبقاً في المشرق في عصر أجداده وآبائه، فالجميع تبعاً لذلك متساوون في الحقوق والواجبات بقطْع النظر عن عصبيتهم واعتقادهم.

وكان ذلك الأمر من أقوى الأسباب التي أعطت الدولة العربية بالأندلس دفعاً قوياً للسير على طريق الاستقرار والتقدم والثبات في وجه كل المتربصين والمعادين، ولا سيما الأوروبيون الذين مثلهم في هذه المرحلة شارلمان، الذي حاول ضرب الدولة العربية بالأندلس قبل أن تتمكن جذورها وتشتد لكن ظروفاً قاهرة أفشلت كل محاولات وأهداف شارلمان.[1]

كان لسياسة عبد الرحمن الداخل البعيدة عن التعصب الديني أثرها البالغ في إقدام مجموعة كبيرة من الإسبان على اعتناق الإسلام، والإقبال على الثقافة العربية ودراستها دراسة عميقة بكل ألوانها وأشكالها وفنونها وهي مرحلة متقدمة بلغتها مسيرة التعريب بالأندلس، وصلتها في زمن قياسي، وإنجاز عظيم للسياسة العربية القائمة على أساس احترام الآخر في كل الميادين، بقطْع النظر عن دين هذا الآخر وعقيدته، ولعل من أبرز عوامل هذه السياسة، أنها تركت الحرية واسعة في أيدي الناس في اختيار عقائدهم بالشكل الذي يرتضونه لأنفسهم دون أي تدخل، مباشر كان أم غير مباشر، ذلك لأن القائمين على إدارة الدولة العربية كانوا موقنين تماماً أن هذه السياسة ستؤدي في نهاية الأمر إلى مزيد من النجاح في تعزيز أركان حركة التعريب وإظهارها بمظهر حضاري لائق وجذاب يقف الجميع أمامه موقف الإعجاب والاحترام والتقدير.

فقد بادرت مجموعة كبيرة من الإسبان إلى اعتناق الدين الإسلامي وسمي الجيل الأول من هذه المجموعة (المسالمة) ثم تطور الاسم بعد ذلك حتى استقر في النهاية تحت عنوان

---

[1] العذري – **ترصيع الأخبار**، ص 25. ابن البار – **الحلة السيراء**، ج 1، ص 35. المقري – **نفح الطيب**، ج4، ص 59.

(المولدون).

وفي المقابل بادرت مجموعة أخرى إلى البقاء على دينها القديم، لكنها ركزت من ناحية أخرى على دراسة الثقافة العربية بكل تفرعاتها وأشكالها ومعطياتها، وسميت هذه المجموعة بالمستعربين وقد شغلت مجموعة المستعربين دوراً إيجابياً كبيراً في المجتمع العربي بالأندلس وهذا يدل على شدة تأثرهم وقناعتهم بظاهرة التعريب واقعاً وممارسة، فلم تتعرض هذه المجموعة لمصالح الدولة العربية لأنها رأت في استمرار هذه الدولة استمراراً لحياتها وأمنها وسلامتها وتحقيق مصالحها التي ارتبطت بالدولة العربية ارتباطاً وثيقاً، ودافعت عن هذه الدولة في كل المناسبات الضرورية.

ولعل هذا الواقع الذي حصل منذ عصر الإمارة الأموية بالأندلس واستمر وقتاً طويلاً كان من أبرز مظاهر التعريب في المجتمع الأندلسي، ومن أَجَلِّ النتائج التي نجمت عن سياسة العرب الناجحة هناك.

ويبدو أن مسيرة التعريب هذه كانت قد سارت أشواطاً بعيدة وأثرت تأثيراً بالغاً في صفوف الإسبان، والدليل على ذلك الموقف السلبي الذي انبثق عن رجال الدين المسيحيين بالأندلس والذي تجسد بخوفهم الشديد على مستقبل الثقافة اللاتينية بعد أن وجدوا أن المستعربين قد تعمقوا في دراسة العلوم والآداب العربية ونبغ عدد منهم في هذه المجالات.

لذلك نرى أن رجال الدين المسيحيين بدأوا حملة مناهضة للثقافة العربية وللإسبان الذين انكبوا عليها فتعربوا لغة وثقافة وموقفاً، واحتجوا أيْ رجال الدين، بأن الثقافة العربية أثرت في اللغة والثقافة اللاتينية التي كتب فيها الكتاب المقدس وسِيَر القديسيين .

تَزَعَّم حركة رجال الدين المسيحيين هذه الراهب (إيلو خيو) الذي ركز على مسألة التمسك باللغة اللاتينية والعزوف نهائياً عن اللغة العربية وثقافتها. لكن محاولاته باءت بالفشل، ذلك لأن تأثير حركة التعريب كان قوياً في صفوف الإسبان، فتحولت هذه الحركة من معارضة حركة التعريب إلى هجوم قوي على الدين الإسلامي، وكان المحرضون على معاداة الإسلام

يغرون الناس بدعاية غير واقعية على فكرة هي، أن كل من يعادي الإسلام ويموت في حربه فهو شهيد لذلك سميت هذه الحركة عند أصحابها بحركة (الاستشهاد) .

وسميت عند العرب حركة الاستخفاف، ذلك لأن بعض أعضائها كانوا يستخفون بمقدسات المسلمين أو ببعض ما هو مقدس عندهم، مثال ذلك أنهم أقدموا في بعض الأوقات على شتم الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم، كما فعل شخص بقرطبة اسمه (برفكتو) الذي أحيل على أثر ذلك إلى القضاء الذي حكم بإعدامه في سنة 235 هـ/850 م، وكذلك فعل رجل آخر اسمه (إسحق) في السنة التالية فحكم عليه القضاء بالإعدام، مع أن القاضي الذي أصدر الحكم كان سيخفض هذا الحكم، لكن الأمير الأموي عبد الرحمن الأوسط أصر على قضية تنفيذ الإعدام حتى لا تستفحل الأمور المعارضة في صفوف أصحاب هذه الحركة، التي عُدت غريبة على المجتمع الأندلسي الذي لم يعرف التعصب في الحقبة التي حكم فيها الأمويون على الإطلاق.

لكن هذه الحركة لم تستمر طويلاً، ذلك لأن المستعربين الإسبان وجدوا في استمرارها خطراً داهماً على المكتسبات الكبيرة التي حصلوا عليها في ظل الحكم العربي بالأندلس، فأعلنوا استنكارهم لهذه الحركة برمتها، وعقد بمدينة قرطبة مجمع ديني بموافقة الأمير الأموي عيد الرحمن الأوسط، برئاسة مطران إشبيلية (ريكافريدو) في سنة 237هـ / 852م، واتفق المشتركون في هذا المجمع على استنكار كل الأعمال التي قام بها أصحاب حركة الاستشهاد وأدانوها، وعدوها حركة غير مسؤولة على الإطلاق لأنها خرجت عن إرادة الكنيسة.[1]

وفي هذا العصر أيضاً حدث ما لم يكن بالحسبان، فقد اتفقت السلطة الدينية العربية المتمثلة برجال الدين المسلمين مع المعارضة الإسبانية القومية المتمثلة بحركة الاسترداد، على ضرب عملية التعريب وإطفاء جذوتها وهو أمر خطير في كل المقاييس، لأنه نادر الحدوث في المجتمعات الإنسانية بوجهٍ عام، وتأتي خطورة هذا الأمر في المقام الأول من اتحاد رجال

[1] أحمد مختار العبادي – **في تاريخ المغرب والأندلس**، ص 144 وما بعدها.

الدين المسلمين مع الحركة الإسبانية القومية المعادية للعروبة والإسلام على حد سواء، ذلك لأن رجال الدين وجدوا في مسألة التعريب خطراً على مصالحهم الدنيوية التي حرصوا أن يحافظوا عليها من خلال تظاهرهم بالحرص على تعاليم الدين وما إلى ذلك من أمور واهية، لا تمت إلى واقع الحقيقة بصلة.

لكن الأمير الأموي الحكم بن هشام المعروف بالربضي، كان لا يثق على الإطلاق برجال الدين، ذلك لأنه وجد فيهم خطراً على مشروعه العربي، الذي بواسطته يستطيع أن يحافظ على قوة الدولة ووحدتها في منطقة محاطة بالأعداء الأقوياء من كل الاتجاهات، لأن الأندلس كما هو معروف محاطة بالبحر المتوسط والمحيط الأطلسي من معظم جهاتها، وبإمكان الأساطيل الأوربية، أن تصلها في الوقت الذي تريده. لذلك بادر منذ لحظات حكمه الأولى إلى إبعاد رجال الدين عن كل المناصب الهامة والمؤثرة، وحصر نشاطهم في مجال الشؤون الدينية وما يتصل بها، وهي مهمتهم الأساسية، فعُدوا ذلك إهانة لهم بعد أن كانوا، قد تعلموا في عصر والده هشام الرضا على التدخل في الشؤون السياسية والاجتماعية ذلك لأن هشام الرضا، كان يحرص على تقريبهم واستشارتهم، وهو أمر لم يحصل في عصر الأمويين بعد وفاته بالأندلس، لأن الأمويين وفي طليعتهم الأمير الحكم الربضي، كانوا يؤمنون ويصرون بضرورة أن يبقى رجال الدين ملتزمين في حدود وظائفهم الدينية، وأن يكونوا نصيراً في مساعدة الحاكم على دفع حركة التعريب قدماً إلى الأمام، وهي الحركة التي عملت على الدوام على تعميق جذور التعريب في كل الميادين، وتأليف الجميع حول استراتيجية عربية واحدة، تؤمن بعدم إثارة المشاعر الدينية والمذهبية.

لهذا جاءت تصرفات الحكم الربضي تجاه رجال الدين حكيمة وعادلة، ذلك لأنهم أرادوا خلق شرخ كبير في عمق المجتمع العربي بالأندلس، فوقفوا مع المعارضين المولدين، وحرضوهم بكل الوسائل والطرق لإعلان الثورة على دولة الحكم الربضي ذات التوجه العربي الواضح، وكادت ثورة الربض، والربض هو الضاحية الجنوبية لمدينة قرطبة، التي كان سكانها من المولدين الإسبان الذين كانوا قد اعتنقوا الإسلام كما ذكرنا، وكانوا يعملون في

مختلف الحرف والأعمال اليدوية، وكادت ثورة الربض أن تنجح لولا رباطة جأش الأمير الأموي الحكم الذي أصبح يعرف باسم الحكم الربضي، ووضعه الخطط المناسبة التي ساعدت على إلحاق الهزيمة في صفوف المتمردين. وقد حدث ذلك كما هو معروف في تاريخ الأندلس في سنة 202هـ/818.[1]

وتعد هذه الثورة من أخطر ما واجهته حركة التعريب بالأندلس في عصر الحكم الأموي على الصعيد الداخلي، ذلك لأنها كانت ثورة إسبانية الأهداف في المقام الأول، لأن المولدين الإسبان استغلوا قضية اعتناقهم للإسلام فحاولوا الانقلاب على السلطان العربي بمساعدة رجال الدين، الذين وجدوا في المولدين وسيلة للانتقام من الحكم الربضي، الذي منعهم من التدخل في شؤون الحكم والسياسة. ومن جهة أخرى فإن هذه الثورة كانت بمثابة إعلان دائم يتردد صداه في أذهان رجال الدين، في أن يمتنعوا عن محاولة التدخل في الشؤون السياسية العادية، التي هي من اختصاص الحاكم نفسه، وبذلك نجح الأمويون في فصل الدين عن الدولة طوال مدة حكمهم، مما ساعد على خلق جبهة داخلية عربية متماسكة، استطاعت أن تقف في وجه كل المحاولات الإسبانية والأوربية وخاصة في عصر الخلافة الأموية، التي كانت فيه الدولة العربية بالأندلس من أزهى وأقوى دول العالم على الإطلاق، حضارة وعلماً وثقافة لأن الجميع من عرب وإسبان ويهود تعاونوا تحت مظلة العروبة، التي أفاءت على الجميع بظلها الوارف، ووفرت لهم كل أشكال الحرية والأمن والاستقرار، وهو ما سنتحدث عنه في الفقرات الآتية.

أما في عصر الخلافة بالأندلس فقد سارت عملية التعريب بوتيرة عالية لكنها مع مرور الأيام كانت تتعرض لبعض النكسات التي أدت مع تقادم الوقت إلى كارثة حقيقية، تجسدت في سقوط الخلافة الأموية، فقد كان السبب في النكسات غير المباشرة التي تعرضت لها حركة التعريب في معظم الأحيان، هو حرص الخلفاء الأمويين على المحافظة على مسألة التوازن

---

[1] ابن عذاري – **البيان المغرب**، ج 2 ص 72 وما بعدها. عبد العزيز سالم – **تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس**، ص 302. أحمد مختار العبادي – **في تاريخ المغرب**، ص 120 وما بعدها.

العام في المجتمع، الذي تشكل من غالبية عربية ومجموعة إسبانية ومجموعة من الصقالبة[1] واليهود.

لكن عملية التوازن هذه لم تستمر في حدود السيطرة بل نرى أن بعض الفئات غير العربية بدأت تعمل لمصلحتها الخاصة دون العرب، وكذلك فقد كان للاعتماد على الصقالبة وغيرهم ردود فعل سلبية جداً في صفوف العرب، الذين بدأوا يتذمرون من وجود بعض الشخصيات غير العربية في المراكز القيادية، وخاصة في عصر الخليفة الناصر لدين الله الذي أسرف في استخدام الصقالبة واليهود في القيادة والإدارة العليا، معتمداً في ذلك على تمكنهم من الثقافة العربية في مختلف فروعها، لكنه أغفل أنهم، على رغم ثقافتهم العربية الواسعة، كانوا ما زالوا يعتزون بأصولهم وقومياتهم والدليل على ذلك أن الصقالبة، الذين استخدمهم الخلفاء الأمويون بكثرة لم يبقوا في إطار مهمتهم الأساسية وشمل هذا التطور كل وجوه الحياة. فقد قام أحد الصقالبة وهو حبيب الصقلبي بتأليف كتاب نوه فيه بمناقب وفضائل الصقالبة في مواجهة مناقب وفضائل العرب وسماه (الاستظهار والمطالبة على من أنكر فضائل الصقالبة).

وقد تحدث ابن بسام الشنتريني عن هذا الكتاب في كتابه (الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة) فذكر أنه اطلع على مضمونه جيداً وقال إنه يحتوي على مجموعة كبيرة من أخبار الصقالبة العامة، وبعض الأخبار عن إنتاجهم العلمي والأدبي، وقيل إن ابن بسام الشنتريني، تقصَّد عدم ذكر أي شيء من أدبهم تعصباً منه لعروبته، وهذا الأمر يوحي أن هذا الكتاب كان يركز حول مسألة التفاخر والتباهي بالأدب الصقلبي وإظهاره بمظهر المتفوق على الأدب العربي، وهذا ما حدا بالمستشرق الألماني – جولد تسيهر إلى القول بأن هذا الكتاب كان بداية الحركة الشعوبية في الأندلس العربية.[2]

---

[1] الصقالبة هم مجموعة من العبيد الأوربيين جيء بهم من مختلف البلدان الأوربية، واستُخدموا في الأندلس في شتى ألوان الخدمة، ومع الأيام شغلوا أدواراً كبيرة في السياسة والجيش والإدارة ولاسيما في عصر الخلافة موضوع هذا البحث.

[2] أحمد مختار العبادي – **في تاريخ المغرب والأندلس**، ص 198.

ويروج بعض المستشرقين لمقولة مفادها أن الخلفاء الأمويين وخاصة الناصر لدين الله، كانوا يرون في مسألة الاعتماد على الصقالبة إضعافاً للنفوذ العربي، الذي كان يثير في نفوس الخلفاء مشاعر الخوف والقلق، لكن هذا القول لا يصح على مدة حكم الخلفاء الأمويين الذين لم يكونوا يخافون من شيء، والدليل على ذلك أنهم فرضوا أنفسهم في كل المجالات، وسيَّروا كل الأمور لمصلحة الدولة العربية، وما اعتمادهم على الصقالبة واليهود والإسبان، سوى جزء طبيعي من سياستهم العامة، التي كانت تهدف إلى صنع حالة من الهدوء والاستقرار بغية الانطلاق لإنجاز مشروعهم الحضاري، الذي تحقق على أكمل وجه وخلال زمن قياسي. لكن الذي حدث أن العرب توجسوا خيفة من قضية اعتماد الخليفة الناصر لدين الله على بعض الصقالبة في بعض المواقع القيادية، كما حدث في معركة الخندق سنة 327هـ/939م بين العرب والإسبان، وقد هُزم العرب في هذه المعركة شر هزيمة، وقيل إن سبب الهزيمة في هذه المعركة أن العرب المشتركين فيها لم يقاتلوا بصدق كما يجب، لأنهم تذمروا وتضايقوا من تعيين الناصر لدين الله شخصية صقلبية لقيادة الجيش وهو نجدة الصقلبي، وهذا يدل على أن الشعور العربي كان في أوج قوته وتوقده.[1]

وقد تجلى ذلك الشعور في أصدق وأحلى صوره، حينما تخلص المنصور محمد بن أبي عامر من الصقالبة نهائياً، لأنه كان يرى فيهم خطراً على الدولة العربية، بعد أن لمس وعانى من تدخلهم في قضية تعيين المغيرة بن عبد الرحمن الناصر خليفة بعد وفاة الخليفة الحكم المستنصر.[2]

من ناحية أخرى اهتم المنصور محمد بن أبي عامر بتعريب الجيش فألغى كل الامتيازات القبلية، وساوى بين الجميع في العطاء والقيادة، فزالت الفروق بين عناصر هذا الجيش، وأصبح تحت راية واحدة يعملون من أجلها وهي الراية العربية. وقد تمكن المنصور بواسطة

---

[1] أحمد مختار العبادي – **في تاريخ المغرب والأندلس**، ص 34 وما بعدها.

[2] ابن عذاري – **البيان المغرب**، ج2، ص 286.

هذا الجيش من تنفيذ أكثر من خمسين غزوة كان النجاح حليفه فيها، حتى إنه وصل في بعضها إلى شنت ياقب في الزاوية الشمالية الغربية من الأندلس، وهي أبعد نقطة وصلها العرب في العصور الوسطى في القارة الأوربية.[1]

من كل ما تقدم من أمثلة على مظاهر التعريب المختلفة في عصر الخلافة يمكن أن نقول إن سبب كل النجاحات اللافتة في هذا العصر الميمون كان سببها انتهاج سياسة عربية واضحة الأهداف والمقاصد، وهي سياسة تميزت بابتعادها عن العنصرية والتفرقة والتشرذم، والدليل على ذلك أنه لما غابت هذه السياسة من الأفق الأندلسي سقطت الخلافة الأموية، وتدهورت أحوال الأندلس، وتجزأت إلى عدد كبير من الدويلات الهزيلة، التي بقيت طوال حياتها لا تقدر على عمل شيء مؤثر أمام القوة الإسبانية المتنامية التي استطاعت أن تسيطر على هذه الدويلات، وأن تُسَيِّرها في الاتجاه الذي تريد.[2]

ولم يمض وقت طويل على سقوط الخلافة الأموية بالأندلس حتى تمكنت القوة الإسبانية التي حملت اسم حركة الاسترداد من السيطرة على طليطلة عاصمة إسبانيا القديمة، وكان ذلك ضربة كبيرة في عمق الوجود العربي، ذلك لأن طليطلة تتوسط بلاد الأندلس، وهي ثغرها الأوسط، وقد حدثت هذه المأساة في سنة 478 هـ/1085م، وتبع سقوط طليطلة سقوط جميع توابعها مثل مجريط (مدريد) ومدينة سالم، ووادي الحجارة وأقليش، وقونكة، وهي منطقة واسعة تصل إلى حدود قرطبة، لذلك عدّها الإسبان إنجازاً عظيماً لحركة الاسترداد، وأطلقوا عليها تجسيداً لعظمة هذا الإنجاز اسم قشتالة الجديدة لأن قشتالة القديمة في وسط شمال الأندلس، كانت عاصمة لحركة الاسترداد الإسبانية، وقد عبر الشاعر الطليطلي المعروف بابن العسال عن هذه المأساة العربية أفضل تعبير، واعتبرها بداية النهاية للوجود العربي بالأندلس .

يقول في قصيدة طويلة أولها:

---

[1] الطرطوشي – **سراج الملوك**، ص 229.

[2] ابن الخطيب – **أعمال الإعلام**، ص 14. المقرئ – **نفح الطيب**، ج 1 ، ص 198.

شدوا رواحلكم يا أهل أندلـــس فمـــا المقـــامُ بهـــا إلا من الغلط
الثوبُ ينسلُ من أطرافِه وأرى ثوب الجزيرةِ منسولاً من الوسطِ[1]

وكان من أكثر الذين تأثروا بسقوط طليطلة هم المستعربون الإسبان مما يدل بوضوح على عمق جذور حركة التعريب في صفوفهم ونفوسهم، فقد تحركوا على أثر سقوط طليطلة، واتصلوا بزعامة حركة الاسترداد، علَّهم يرفعون الضيم عن العرب من جرّاء هذه النكبة، وكان ذلك برئاسة شخص يدعى (ششند)، الذي حاول عبثاً أن يقنع قادة حركة الاسترداد، أن يتعايشوا مع العرب المغلوبين على أساس الاحترام والسلام، مذكراً إياهم بحسن معاملة العرب للإسبان بعامة طوال مئات السنين، لكن ذلك لم ينفع في تغيير أي شيء من فصول النكبة العربية، التي حلت بالعرب نتيجة اختلافهم وتفرقهم، وبدلاً من أن يحصل ذلك اتحدت قيادة حركة الاسترداد مع مجموعة دينية فرنسية، كانت تتبع لنظام كنسي عرف بنظام (كلوني) نسبة لدير كان قد نشأ فيه هذا النظام بمدينة كلوني الفرنسية، وهو نظام عنصري متعصب، كان هدفه الأساسي استئصال شأفة الوجود العربي في القارة الأوربية.[2]

وعلى الرغم من تمزق وحدة الأندلس بعد سقوط دولة الخلافة الأموية، وظهور دويلات عديدة مستقلة عرفت بدويلات الطوائف[3] فإن بعض هذه الدويلات ظلت مثابرة على السير في طريق التعريب، وحاول بعضها عبثاً إعادة وحدة الأندلس، كما كانت في عصر الخلافة تحت الراية العربية. كان في طليعة هذه الدويلات دويلة اشبيلية بقيادة بني عباد، الذين تحدروا من أصول مشرقية عربية صريحة، وانتقلوا إلى الأندلس وشغلوا فيها دوراً إيجابياً إلى حد بعيد، ولعل أهم الأدوار الإيجابية التي شغلوها، هو شغلهم لقيادة إشبيلية في عصر الطوائف بالأندلس وحاولوا طوال هذا العصر أن يعيدوا للأندلس وحدتها، وذلك بضم دويلات الطوائف الأخرى

[1] ابن خلكان – **وفيات الأعيان**، ج 4 ، ص 118.

[2] أشباخ – **تاريخ المرابطين والموحدين**، ج1، ص 139.

[3] سقطت دولة الخلافة سنة 422هـ وبدأ بالأندلس ما يسمى بعصر الطوائف الذي استمر حتى سنة 484 هـ.

في دولة واحدة، والوقوف بقوة وصلابة في وجه حركة الاسترداد الإسبانية. وكان من أهم أفعالهم في هذا الميدان، تحرك المعتمد بن عباد زعيم دويلة إشبيلية لمواجهة ما يدور حوله من تحركات معادية، ومن ذلك أن الفونسو السادس زعيم حركة الاسترداد الإسبانية، الذي أنجز عملية إعادة طليطلة وما حولها إلى السيطرة الإسبانية، قد أخذته نشوة النصر واستبدت بمشاعره، فتلقب بإمبراطور جميع إسبانيا، وبذي الملتين (أي الإسلامية والمسيحية)، ولما سمع المعتمد بن عباد الزعيم العربي الإشبيلي بهذه الألقاب، استنكرها وأمر بشطبها من المراسلات التي وصلت إليه من الفونسو السادس، وقال للمراسل بلهجة غضب شديدة: (المسلمون أحق بهذا الاسم...)،[1] وكان يقصد بوجهٍ خاص لقب (ذي الملتين) الإسلامية والمسيحية، وهو لقب عربي في الأصل .

وحينما توترت العلاقة بين الفونسو السادس والمعتمد بن عباد، أيقن هذا الأخير، بأن جميع دويلات الطوائف ومنها دويلته إشبيلية، ستسقط قريباً في أيدي الإسبان، وهو أمر كان محتماً بعد الذي حصل في طليطلة وما حولها، لذلك توجه المعتمد بن عباد لطلب المعونة الفورية من الدولة المرابطية بالمغرب الكبير، التي كانت في أوج فتوتها وقوتها وحماسها. ونصحه مستشاروه بعدم التوجه إلى المرابطين، لأنهم في نظر هؤلاء المستشارين لن يكونوا أقل من الإسبان في مسألة حب السيطرة على المناطق، التي تشغلها دويلات الطوائف بالأندلس ومنها إشبيلية، لكن ابن عباد بتأثير حسه العربي ونظرته البعيدة لِخدمة المستقبل العربي، رفض نصيحة مستشاريه، على معرفته الأكيدة بصحتها وواقعيتها، وفضَّل أن تقع بلاده في أيدي المرابطين العرب بدلاً من أن تقع في أيدي الإسبان، وقد تجلى ذلك بقوله المشهور: (رعي الجمال عندي خير من رعي الخنازير) ويقصد بذلك أنه يفضل المرابطين على الإسبان[2] ويعد هذا الموقف من أكبر المواقف العربية الصريحة، التي صدرت عن الحكام بالأندلس والمغرب

[1] مؤلف مجهول – **الحلل الموشية**، نشر علوش، ص 26.

[2] مؤلف مجهول – **الحلل الموشية**، ص 32، السلاوي، **الاستقصا**، ج2، ص 35.

في العصور الوسطى، لأنه يمثل مرحلة متقدمة وناضجة في خضم عملية التعريب في الأندلس.

وهذا ما يشجع على القول، بأن المدة التي شغلها الأمويون في حكم الأندلس، وكذلك بعض زعماء الطوائف كالمعتمد بن عباد سابق الذكر، وهي المدة التي بدأت منذ عصر الولاة وانتهت بدخول المرابطين إلى الأندلس سنة 484هـ/1091م، شكلت ما يسمى بالسيادة العربية شبه المطلقة، ذلك لأن العرب في هذه المدة، جاؤوا إلى الأندلس من بلاد الشام ومصر والعراق والحجاز، وتوطنوا في مختلف المناطق الأندلسية، وصبغوها بصبغة عربية واضحة المعالم في شتى المجالات، وظل ذلك واضحاً في حياة الأندلس حتى خروج العرب منها في أواخر القرن التاسع الهجري/الخامس عشر الميلادي، ودليل ذلك أن الإسبان حينما انتصروا على آخر مجموعة عربية بغرناطة، كان من أوائل أعمالهم القبيحة، طمس كل معلم عربي من آثار ومؤلفات، ونسوا أن العروبة بثقافتها المتقدمة، هي التي أمدَّت الأوربيين بالوسائل الحضارية والإنسانية الأصلية، ذلك لأن الأندلسيين العرب، تميزوا بوجهٍ خاص بالعزة والأنفة وعلو الهمم وعدم احتمال الذلة والمهانة، كما تميزوا بالسماحة والنزاهة.[1]

وقد كونت العربي الأندلسي ثلاث عناصر هي، الاختلاط والحياة الجديدة والأصل العربي، بل الحياة العربية التي تملأ مخيلته. وبقي العنصر المتمثل بالأصل العربي هو البارز في حياة عرب الأندلس، وهو أصله نقله من المشرق العربي، وظل يحتفظ به على الدوام، لذا نرى أن معظم الأندلسيين، الذين اشتهروا في ميادين العلم والشعر والأدب، كانوا قد تحدروا من أصول عربية عريقة.[2]

وكان معظم الشعراء العرب، يحرصون على إبراز عروبتهم، ذلك لأنهم كانوا يشعرون أن ذلك ضرورة وطنية، لأنهم يعيشون في بيئة، يعمل أصحابها على محاربة العرب. ولعل ابن

---

[1] المقّري، **نفح الطيب**، ج2، ص 763.

[2] مصطفى صادق الرافعي، المرجع السابق، ج3، ص 368.

حمديس يأتي في طليعة هؤلاء الشعراء.[1]

ومن الجدير بالذكر في هذا الشأن الهام، أن الأندلسيين منذ بدأ اهتمامهم بالعلم في أوائل عصر الإمارة الأموية، عدوا دراسة الشعر ضرورة مطلقة، ذلك لأن الشعر واللغة العربية إلى جانب القرآن الكريم، كان يقوي لغتهم ويصقلها ويعززها في عقول الجميع. فَمَعَ أن رجال الدين، كانوا يرون في الشعر ضرباً غير مرغوب فيه، فإنهم كانوا في الأندلس يشجعون على دراسته وحفظه، حفاظاً على اللغة العربية وتمكين جذورها ووجودها كلغة مرموقة ذات انتشار واسع، وقد برز ذلك في شخصية الفقيه أبي بكر العربي المتوفى سنة 543هـ/ 1149م، الذي كان يثني ويشيد بطريقة وأسلوب الأندلسيين من أبناء جلدته، الذي كما ذكرنا كان يتجسد في إقبالهم على دراسة الشعر مثل دراسة أي علم آخر، فكان يدعو على الدوام إلى ضرورة قراءة الشعر في البداية، ذلك لأن الشعر في نظره هو ديوان العرب.[2]

كما يمكن أن نضيف أن مظاهر التعريب بالأندلس في العصور الوسطى، لم تكن قد اقتصرت على الأدب أو الأمور السياسية وما يتصل بها، بل شملت عدة مجالات أخرى، نذكر منها على سبيل المثال المجال العلمي، فقد ظهرت مظاهر التعريب في بعض المؤلفات التاريخية الهامة، كما حصل في كتاب (أخبار مجموعة في فتح الأندلس وذكر أمرائها) لمؤلف مجهول، الذي ينتهي في سنة 350 هـ/962 م عند وفاة الخليفة الشهير عبد الرحمن الناصر لدين الله. ويتميز هذا الكتاب بوجهٍ خاص بدقته العلمية وتعصبه للعرب، مما يوحي بأن صاحبه رجل عربي صريح. وقد جاء هذا الكتاب على عكس كتاب (تاريخ افتتاح الأندلس) لابن القوطية، الذي تميز بتعصبه للإسبان في كثير من الشؤون والموضوعات، فهو يثني على الأمير القوطي الإسباني أرطباس بن غيطشة، ويهاجم الزعيم العربي الصميل بن حاتم، فينعته بالجهل والأمية وما إلى ذلك، مما يدل دلالة واضحة على أن ابن القوطية بفعل قرابته من

[1] جودت الركابي، المرجع السابق، ص 100 وما بعدها.

[2] ابن خلدون، **المقدمة**، ص 539.

الأميرة الإسبانية سارة حفيدة ملك إسبانيا غيطشة القوطي، كان يميل إلى جانب الإسبان ويكره السيادة العربية على الأندلس، مما جعل بعض الكتاب يعد كتابات ابن القوطية هذا، بداية المحاولات الأولى على طريق الشعوبية بالأندلس، لكن شعوبية الأندلس لم تهاجم الإسلام، كما حصل في المشرق في عصر العباسيين، بل هاجمت السيادة العربية على الأندلس، ودليل ذلك ابن القوطية موضوع هذا الحديث، الذي عرف بتعصبه الشديد للإسلام وتمسكه بتعاليمه،[1] وفي ذلك مثال ساطع على أن الإسلام كدين وعقيدة، لم يتمكن حتى اليوم من إلغاء المشاعر القومية والوطنية، ولم يكن أكثر من عقيدة يأمل صاحبها أن يسير بفضلها على طريق الفوز والنجاة في الآخرة. فقد كان ابن القوطية موضوع هذا الحديث من طبقة المولدين، ذات الأصول الإسبانية التي اعتنقت الإسلام، وهي طبقة بقيت على الدوام، تسعى لتحقيق أهدافها القومية والوطنية المتمثلة بالتخلص من السيطرة العربية تخلُّصاً نهائياً، ولم تستطع العقيدة الإسلامية، أن تؤثر في عقول أبناء هذه الطبقة لتجعلهم يسيرون في ركب الدولة العربية، من ثَم ينسون أصولهم الإسبانية والقومية، على اعتبار أن مجموعة من المسلمين ما زالوا يحلمون بأن الإسلام كفيل بإزالة كل المشاعر القومية والوطنية، وهو أمر مستحيل التحقيق، وسيبقى في عالم الأحلام والخيال، وذلك بالاستناد إلى التجربة المغربية والأندلسية في مختلف الحقب، فقد دلت الأحداث أن الغرباء، لم تكن تعنيهم العروبة بشيء، وتبلور نشاطهم على الدوام بمسألة تحقيق مصالحهم الوطنية والقومية في المقام الأول.[2]

ولابد من لفت النظر أن بعض مظاهر التعريب، تجلت في حرص بعض رجال الدين على استمرار الوجود العربي بالأندلس، وذلك بدعوة الحكم للتحرك قبل فوات الأوان، حينما كانت الأندلس تتعرض للأخطار وخاصة في زمن الطوائف، حيث تقاعس معظم الحكام باستثناء المعتمد بن عباد زعيم دويلة إشبيلية، الذي حاول أن يفعل شيئاً على طريق تدعيم الوجود

---

[1] يضاف إلى ذلك أنه كان متعمقاً في اللغة العربية، ودليل ذلك تأليفه لكتاب في النحو اسمه الأفعال.

[2] المقري، **نفح الطيب**، ج1، ص 155، وما بعدها. مؤلف مجهول – **أخبار مجموعة**، ص 31.

العربي بالأندلس، وكانت جهوده محمودة في هذا السبيل إلى حد بعيد. ومن شدة حرص بعض رجال الدين على الوجود العربي، كانوا يلحون بدعوة الحكام للتحرك الإيجابي، مما أثار حفيظة زعماء الطوائف، الذين وجدوا في دعوة رجال الدين حرجاً كبيراً لوجودهم في السلطة، فأمروا بقتل بعض من ألحوا بدعوتهم للتحرك على طريق الحفاظ على وجود العرب بالأندلس.[1]

أما في عصر المرابطين والموحدين، فقد كانت مظاهر التعريب قوية وفاعلة، ساعد على ذلك قوة هاتين الدولتين على الأرض، وكانت هذه المظاهر في كل مجالات الحياة، وهو ما تحدثنا عنه في سياق الحديث عن مظاهر التعريب في المغرب الكبير، لأن المغرب والأندلس كانتا دولة واحدة، وكانت عاصمة المرابطين والموحدين في المغرب.

وفي عصر بني الأحمر في غرناطة، حاول الغرناطيون حفظ ما هو تحت أيديهم من وسائل التعريب ووجوده، فقد صمدوا صموداً لافتاً في وجه أعدائهم، ولكن هذا الصمود لم يتمكن من الاستمرار، وذلك لقوة عدوهم الذي وقفت معه كل البلدان الأوربية، على حين حاول الغرناطيون طلب مساعدة العرب في المغرب الكبير والمشرق، فاستجاب المغرب الكبير في جزء منه، وهو المغرب الأقصى الذي تمثل بدولة بني مرين، ولم يستجب له المشرق على الإطلاق، لأن قلب المشرق وظهره كان مريضاً بمرض السيطرة المملوكية، التي لم تكن تهتم إلا بما ينفع مصالحها الشخصية المحدودة، فسقطت غرناطة وهي تنادي وتصرخ في آذان الأشقاء، وحتى اليوم لم يسمعها أحد من العرب.

[1] الأمير عبد الله، **التبيان**، ص 106 وما بعدها، ابن الآبار، **الحلة السيراء**، ج2، ص 99، ابن الخطيب، **أعمال الإعلام**، ص 245.